الأداتية والديمقراطية - جون ديوي أنموذجا

John Dewey as a model -Instrumentalism and democracy

ط.د. بلوط صابرينة[1*]، سواريت بن عمر[2]

[1*] جامعة وهران كلية العلوم الاجتماعية (الجزائر)، sabrina.bellout@univ-tiaret.dz

[2] جامعة وهران كلية العلوم الاجتماعية (الجزائر) .sarauteamar@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/12/10 تاريخ القبول: 2020/04/02 تاريخ النشر: 2023/05/04

ملخص:

إن الحديث عن البراغماتية، حديث بالضرورة عن الأداتية كمنهج استطاع من خلاله الفيلسوف الأمريكي جون ديوي، تعميق اطر وأفاق البحث الاجتماعي في محاولة لاستنطاق الواقع المعاش، لذلك سعت الفلسفة الذرائعية جاهدة على الدوام للاهتمام بالطموح الاجتماعي خالقة بذلك فرصا للاستحداث الأمل في الحياة من خلال تنظيم وتأطير للمشهد الثقافي بأبعاد إنسانية واجتماعية، لعبت فيه الديمقراطية ادوار رئيسية كأفضل وسيلة للتعبير عن الحقوق والواجبات وأكثر من ذلك عن الإنسان والحياة.

الأمر الذي استدعى ضرورة الوقوف عند الأداتية كمنهج وما مدى توظيفها لقيم الديمقراطية، مع التركيز على كل من التربية والعلم كمكنز مات بحث أساسية وركائز منهجية ضمن السياق العام لبرغماتية جون ديوي الأداتية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الأداتية، الديمقراطية، البراغماتية، التربية، المنهج.

Abstract:

Talking about pragmatism is necessarily talking about instrumentalism as a method through which the American philosopher John Dewey was able to deepen the frameworks and horizons of social research in an attempt to interrogate the lived reality. Therefore, pragmatic philosophy has always striven to pay attention to social ambition, thus creating opportunities for creating hope in life through organizing and framing the scene. Cultural with human and social dimensions, in which democracy played major roles as the best way to express rights and duties and more than that about man and life.

Which necessitated the need to stand at instrumentalism as a method and the extent to which it employs the values of democracy, with a focus on both education and science as basic research thesauruses and methodological pillars within the general context of John Dewey's instrumental and social pragmatism

Keywords : : instrumentalism, democracy, pragmatism, education, Method.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

في خضم المشاريع السياسية والفلسفات العملية تظهر الديمقراطية بوصفها نظام اجتماعي وسياسي، استطاع أن ينال حيزا واسعا من الدراسة والبحث والمساءلة عن كيفيات وأساليب، بل وأدوات البناء وفقا لأطر البحث الفلسفي وبما تدعو إليه الحاجة من تعايش وإصلاح واستقرار في كنف الديمقراطية.

وفقا لهذا تتصدر فلسفة جون ديوي البراغماتية القائمة كواحدة من أهم الفلسفات الاجتماعية التي أخذت على عاتقها مهمة إعادة البناء والإصلاح مع ما يتماشى والديمقراطية كحاجة إنسانية وضرورة طبيعية بغية التكيف والاشتراك، خاصة وان الديمقراطية تبقى أفضل وسيلة وجدت حتى اليوم لتفعيل ادوار رئيسية في ميدان العلاقات البشرية وتطوير الشخصية الإنسانية، وفرض قيم ثقافية بدلالات قيمية استثنائية تعزز الأمل في الحياة.

إذ لا حياة بدون أمل والعكس صحيح، هذا ما جاءت تؤكده فلسفة جون ديوي من خلال اهتمامها بالطموح الاجتماعي، وغرس قيم الديمقراطية الحقة في نفوس البشرية، مما يفتح أفاق اكبر للتعايش الايجابي والإنساني، معتمدة في ذلك على المنهج الأداتي، كأهم تجربة إجرائية تستثمر فيها الطاقات الايجابية مما يجعلها تتميز عن مثيلاتها بمساهمتها الفعلية في تحريك دواليب الفكر البراغماتي والسير به قدما نحو الإصلاح والتجديد.

ما دفع ديوي إلى الأخذ بأحوال المجتمع، كمنبهات رئيسية لفلسفته الأداتية، فلسفة تختزل معايير العمل في ما مدى تجسيدها مبدأ الذرائعية والالتفات أكثر لخلق آليات أو أدوات التفكير المكرسة ذاتيا لخدمة المجتمع واستقرائه بحثا عن مكامن العطل، خاصة وان التصور الديوي واسع الأفق ليهتم بحال الإنسانية كيف ما كان وأينما وجدت وحيثما كانت.

ما عبرت عنه فعليا الأداتية من خلال ربط الفلسفة في اتجاهها العام بالحياة، بالخبرة بالمجتمع، ذلك أن البراغماتية في عمومها فلسفة في الحياة، لم تقتصر على التطور النظري بل سعت إلى بناء منظومة عمل تتحقق فيها فرص التكافؤ والتكامل بين الفرد ومجتمعه الديمقراطي.

بناء على الاعتبارات السابقة، تبقى إذا الديمقراطية الفضاء الأنسب لتحقيق مطامع جون ديوي البراغماتية، فلم يكن من باب الصدفة توظيف ديوي للأداتية كمنهج إجرائي تكتمل فيه الضرورة والحاجة، خاصة دوره الوظيفي في تفعيل قيم الديمقراطية وتعزيزها في المجتمع.

من هنا كان لازما علينا الأخذ بمبدأ الضرورة عند ديوي والتنويه بقيمة الأداتية كمنهج ودورها الحيوي في تنشيط حركة الفكر البراغماتي وأبعاد ذلك على الديمقراطية، الفرد المجتمع وفقا لتصور أصبح هاجسه الأول الإنسان في الواقع، الإنسان التاريخي، الإنسان المتفائل، الإنسان الديمقراطي، الإنسان الآمل في السعادة وعليه نطرح الإشكال التالي:

ما قيمة الديمقراطية ضمن السياق العام لفلسفة جون ديوي الأداتية؟ وما مدى تفعيل قيم الديمقراطية من خلال المنهج الأداتي؟ وبتعبير أخر كيف استطاعت الأداتية كمنهج تسخير أدوات البناء الديمقراطي بين المبدأ والتطبيق؟

2. في معنى الأداتية المفهوم والدلالة:

تمثل الأداتية أحد أهم ركائز الفكر البراغماتي وضروراته المنهجية، ما استوجب ضرورة ضبط هذا المفهوم من حيث الدلالة والمعنى، وقوفا عند أهم مضامينه اللغوية ودلالاته الاصطلاحية فالمسألة لا تختزل إلى مجرد توظيف مفاهيمي أو تقديم شرح خالي الوفاض بقدر ما تسعى إلى الأخذ بعين الاعتبار خصوصية المفهوم وطبيعته وأهم تجلياته، مع ما يتماهى والسعي الحثيث للاتسام بالموضوعية في عملية الضبط.

تعتبر الأداتية أو الذرائعية **Instrumentalisme** نزعة براغماتية بامتياز فهي فلسفة أمريكية تهتم بالمعرفة لا من حيث حقيقتها المطلقة بل من حيث فعاليتها، ذلك أن للحقيقة علاقة ملازمة كليا للاختبار البشري وان المعرفة أداة في خدمة الفعالية، فحقيقة القضية تكمن في كونها (مفيدة)، (ناجحة)، (مرضية).[1]

- الوسيلة أو الأداة في اللغة وفي المعاجم العربية تعني في الجمع وسائل (و س ل) وهي البحث عن وسيلة لتحقيق هدفه: الأداة.

وهي جمع وسائل ووسل: كل ما يتحقق به غرض معين يقابله غاية باتخاذ كل الوسائل، وهي عموما في أصلها الاسم وسيلة في صورة مفرد مؤنث وجذرها (وسل) وجذعها (وسيلة) وتحليلها (ال+ وسيلة)، كما تعني في عمومها كأداة تستخدم لأجل الوصول إلى الغرض.[2]

يقترب وفقا لهذا مفهوم الأداتية من الوسيلة باعتبار أن الأفكار وسائل للعمل تتحدد قيمتها بنجاح العمل، وقد أطلقت الذرائعية على مذهب جون ديوي ومذهب مدرسة شيكاغو وهو مذهب براغماتي **Pragmatique** يقر بان أي نظرية هي عبارة عن أداة أو ذريعة في العمل تكمن قيمتها في مدى مردودها العملي، والمنطق الذرائعي هو الذي يبني أحكامه على التجربة، كما أن الذرائعي عموما لا يتخذ قراره من فكرة مسبقة أو إيديولوجية سياسية محدودة، بل من خلال أخذه بعين الاعتبار النتيجة العملية المنشودة، هذا بالضبط ما تدعو إليه البراغماتية كفلسفة الأثر والنجاح والعمل.[3]

الأداتية كمصطلح اشتقه ديوي من خلال قراءته لوليام جيمس الذي يعتبر كذلك أن العقل "أداة فعالة نشيطة مهمته أن يوائم بين الكائن وبيئته مواءمة تعين صاحبه على البقاء فهو أداة بيولوجية كسائر أعضاء الكائن الحي، لا تنفك أن تواجه المواقف الجديدة الطارئة فترد عليها بما عساه أن يكتب النجاة والبقاء القوي لصاحب تلك الأداة".[4]

لذلك سمي مذهب جون ديوي بالأداتية **Instrumentalisme** باعتبار أن العقل ذو وظيفة بيولوجية تتخذ من الفكرة أداة أو وسيلة للعمل على نحو يحقق للإنسان ما يبتغيه من تغيير في مجتمع صناعي ديمقراطي على نحو يجعل المعرفة آلة ووظيفة في خدمة مطالب الحياة.[5]

- تتقاطع البراغماتية أو الذرائعية إلى حد بعيد مع التجريبية **Empirisme** عند جون ديوي فهي أداة للفعل ومحركه الرئيسي، فالمذهب التجريبي كخطاب للعالم الواقعي لابد أن يكون حاضرا أمام منبهات الإحساس، فالتجريبية على حد تعبير "إدنجيون" أداة براغماتية إذا ما اقترنت بالفكرة الناجحة فهي التجربة الجيدة والتجريب الجيد الذي يقوم على أساس اختبار الظواهر الطبيعية في تأليفاتها الممكنة وتسجيل كل العلاقات بين هذه الظروف والنتائج التي توجد لدينا.[6]

- لتمثل بذلك التجربة عند جون ديوي مرحلة حاسمة وحاجة مهمة لمختلف أبحاثه والتي انعكست على مذهبه الأداتي فالمعرفة معرفة فعالة موجهة وهي جزء وظيفي من التجربة، فالفكر يعمل في الواقع عن طريق أدوات لتعبر هذه الأدوات عن القضايا التي تقع في المراحل الوسطى بين قيام المشكلة أمام الفكر وحلها في نهاية المطاف.

تعد كلمتي تجربة وتحقيق على التوالي أحد أهم مفاتيح المذهب الأداتي أو الوسائلي فالتحقيق هو فكر يرتكز على تحويل موقف غامض وغير يقيني عن طريق التجريب إلى موقف واضح ثابت ومنسجم، يعرف جون ديوي التحقيق فيقول: " هو التحول المراقب أو الموجه لموقف غير محدد إلى موقف محدد في تميزاته وعلاقاته المكونة الذي يحول عناصر الموقف الأصلي إلى كل موحد". [7]

فالتجريب والتحقيق أساس بلوغ مطامح الأداتية إذ أن مصطلح الأداتية يرتبط بالوسيلة والأداة كما لاحظنا، فالأداة لا تكتمل عند جون ديوي دون تجريب وهذا هو المقصد من الأداتية الأداة والوسيلة.

لذلك آمن ديوي بالدور الحيوي والوظيفي للتجريب في صميم عمله الأداتي فالعقل البشري عنده نتاج التطور البيولوجي فهو أداة، حيث دعي إلى إخضاع فاعلية العقل ووظيفته للتجريب وللتقييم والتحويل، ما جعله يفتح صف تجريبي في جامعة شيكاغو التجريبية سعيا منه إلى إرساء دعائم البحث التجريبي العملي والعلمي الذي يرى فيه آمال وأفاق البراغماتية قائلا: " إذا طبق بصورة عامة فسيحررنا من العبء الثقيل الذي فرضته علينا العقائد والمقاييس الخارجية [....] وعندما تكون الوسائل جديدة في أصلها كجدَّة العلم التجريبي".[8]

- هكذا إذا قدمت الأداتية المفاهيم والقوانين العلمية والنظرية كوسائل وأدوات في شكل خطط عمل، من خلال المنهج خاصة وأن المنهج في أعم معانيه وسيلة لتحقيق هدف، فهو نشاط يقوم به الإنسان وفق طريقة محددة لتنظيم هذا النشاط والوصول إلى نتائج تحركها مقومات أو أدوات النجاح والعمل.

باختصار الأداتية بين المفهوم ودلالته نزعة براغماتية فهي طريقة منهجية في نظرية المعرفة ترى أن المفاهيم والنظريات مجرد أدوات مفيدة تقاس قيمتها بمدى فعاليتها وقدرتها على الإصلاح والتجديد تبعا لما تحدده التجربة الإنسانية.

3- الأداتية بين المبدأ والتطبيق:

3-1 الأداتية كمنهج و أبعادها الديمقراطية:

لطالما ارتبطت الأداتية بالفلسفة البراغماتية وتحديدا المنهج الأداتي عند جون ديوي والذي سميت فلسفته بالتجريبية من خلال نقدها للفلسفات المثالية ودعوته الصريحة للتوجه نحو الواقع " إن أرائي طبيعية إلى حد كبير وهي ردة فعل لا على المثالية الفكرية فحسب، بل على جميع المذاهب المثالية أيضا".[9]

لتتحول مهمة العقل من مجرد أداة للمعرفة كما كان معروفا من قبل مع البراغماتية التي رأت أن الدليل على حقيقة أي شيء إنما هو اثر هذا الشيء وعلله ووظيفته، محافظة بذلك على مهمة العقل كأداة للمعرفة، أي أن العقل وجد لكي يعرف، لكن ديوي عدل من هذه الرؤيا معتبرا أن للعقل وظيفة ابعد من أن نحصره في حدود المعرفة، حيث رأى أن العقل في الواقع ليس أداة للمعرفة وإنما هو أداة لتطوير الحياة وتنميتها **Instrument ferpromotionne life**.[10]

على اعتبار أن التفكير من صميم الحياة فهو ينتج عن حالة عدم التوازن بين الإنسان ومحيطه الذي يعيش فيه، ولأجل التكيف والاستقرار ويستعين بالفكر كأداة لتحقيق ذلك لان الواقع هو المحفز الأول لتنشيط الفكر ولا يمكن أن ينفصلا هكذا، إذا يتم ربط النظري بالعلمي والفكر بالواقع، فالحياة تبقى عبارة عن محاولة مستمرة من أجل البقاء والتكيف مع الظروف، ولعل أفضل وسيلة لذلك تتمثل في جملة الأفكار ومدى فعاليتها وتحقيقها للتكيف والاستمرارية، وهنا تكمن قيمة الأفكار.

تعمل الأداتية **Instrumentalisme** كمذهب على اتخاذ الفكر أداة أو وسيلة للعمل على ضوء ما يحققه الإنسان من تغيير أو إصلاح في مجتمعه الصناعي الديمقراطي وجعل المعرفة آلة إنتاج لخدمة مطالب الحياة، وحل مشاكلها فالمعرفة العقلية على حد تعبير ديوي.

فالفكر من طبعه الأداتية، حيث يعمل على حل المشكلات وتذليل مختلف العقبات بتعديل الخبرات وترويض العالم لصالحه، في إطار العلاقة المستمرة بين الطبيعة والإنسان البيولوجي العقلي الذاتي والموضوعي بعيدا عن التجريد والتحديد، وفقا لمنطق عملي يسعى إلى تحقيق الحريات وحل المشكلات عن طريق المنهج الأداتي كنموذج لبلوغ الديمقراطية المنشودة.

هذا ما ذهب إليه جون ديوي من خلال منهجه الأداتي الذي يؤسس لفكرة تسخير الفكر لخدمة الحياة، ووضع خطط عمل لأجل مجابهة صعوبات الحياة وتنشيط حركة الفكر الناجع وما مدى انعكاس ذلك على النجاح على الفرد والمجتمع.

يذكر ديوي أن المهمة الأساسية للفلسفة كأداة يمتلكها الإنسان تكمن في الإجابة على الأسئلة التالية "ما اثر معرفتنا الوجودية في أي وقت؟ معرفتنا المعتمدة على البحث في أحكامنا واعتقاداتنا عن الأغراض والوسائل التي يجب عليها توجيه سلوكنا؟ ما الذي تثير به المعرفة فيما يختص بالإرشاد ذي السلطة لرغباتنا وعواطفنا وخططنا وسياستنا؟".[11]

يتأكد لنا جليا موقف جون ديوي على ضوء هذه الإشكاليات والتي حتما ستوضح مطالب المنهج الأداتي على جميع المستويات والاتجاهات بما في ذلك السياسية منها من خلال الديمقراطية احد أهم هذه المطالب، إضافة إلى مطلبه الرئيسي والمتمثل في محاولة تجديد الفلسفة وإعادة البناء وعليه نطرح الإشكال التالي: ما طبيعة التجديد وإعادة البناء الذي دعي إليه جون ديوي؟ وما مدى انعكاسه على الفرد والمجتمع، بيت القصيد من فلسفة ديوي الاجتماعية؟ وبالتالي كيف استطاعت الأداتية كفلسفة ومنهج المساهمة في عملية البناء، أي ما قيمتها من خلال النتائج علما أنها فلسفة الأخذ بالنتائج؟

الدعوة لإعادة البناء في الفلسفة تعد مسالة في غاية الأهمية ولن تكون عملية إعادة البناء إلا عملية تطوير وتشكيل مجموعة من الأدوات الفكرية التي توجه البحث مباشرة إلى كل ما يخص الإنسان أي توجهه نحو الوقائع الخلفية الخاصة بالأوضاع الإنسانية الحالية على حد تعبير جون ديوي.[12]

قاصدا بذلك ضرورة إعادة النظر في جل المفاهيم التقليدية، التي عطلت حركة الفكر متسببة في ركود معرفي، غاب فيه السؤال الحقيقي حول المهمة الأولى للفلسفة والتي يجب أن تكون عليها من محاكاة للواقع المعاش الذي يعد الإنسان واجهته الأولى والأخيرة على اعتبار أن كل شيء قابل للتغيير، الأمر الذي استوجب عملية تنشيط واسعة الأفاق نحو تعديل وإصلاح للقيم الإنسانية، فالفلسفة إذا تتحرك نحو هذا كأداة لمجابهة الواقع وحل مشكلاته على جميع الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وظيفة الفلسفة إذا من صميم الواقع الذي نعيشه، فتتحرى مشكلاته وتحاول حلها على أنسب وجه ممكن في ظل ما يحيط بنا من تطور هائل على المستوى الاقتصادي والصناعي ما يجعل مهمة الفلسفة محدودة تصلح لوقتنا الحالي خاصة وجملة المشكلات التي تنشا من التغيرات الحاضرة وما تسببه من أثر عميق يزداد شدة وتغلغلا في حياة الفرد وانعكاس ذلك على المجتمع.[13]

ما استوجب تبني منطق التجديد المستمر والمستنير بروح التفاؤل والتطور والاستمرارية بتسخير مختلف الوسائل والأدوات لاستنطاق الواقع المتغير ما يدعو إلى نفي وجود حقائق نهائية ومحدودة ذات طابع شمولي "اليوم ليس هناك من نماذج أو صور تحتمل طابع الديمومة، ويمكن لها أن تقدم شيء ثابتا مستقر يمكن التسليم به، كما لا توجد المواد التي يمكننا أن نصوغ منها أهدافا نهائية وشاملة بل على العكس هناك تغير دائم".[14]

إن التغيير أحد أهم متطلبات ومقاييس التجديد في الفلسفة بدل الركون إلى زوايا الفكر التقليدي العقيم، كيف لا والبراغماتية في الأساس فلسفة تؤمن بروح التجديد وتعزز قيم الإصلاح والنجاعة ما انعكس على الأداتية التي وكما وضحنا تثير كمفهوم وكتداول وكاستعمال كل المقاييس التي لطالما جاءت بها البراغماتية.

ضمن هذا السياق قدم جون ديوي نقدا للفلسفة التقليدية فقد حد وظيفتها بحدود المعرفة، حيث عبرت عن أنساق جوفاء خصت بطبقة الفلاسفة المتكلمون، وما يتماشى مع أساليبهم الذاتية بالرغم من ادعائهم

الموضوعية وعليه وجب على الفلسفة تحقيق وظيفتها على أكمل وجه من خلال الاحتكام للواقع سائلة ومجربة هدفها الأول والأخير التعبير عن مشاكل الممارسة الاجتماعية التي حتما ستخلق الوظيفة الأداتية لأن الفلاسفة يعدون طبقة مختصة تستخدم لغة تقنية لا تشبه اللغة العادية التي تعرض الصعوبات المباشرة أو ذات الاتصال المباشر بالحياة الاجتماعية.[15]

أيقن ديوي من البداية اليقين الراسخ حول إنزال مهمة الفلسفة منزلة الواقع فإذا كان سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض فان ديوي قد انزلها من العقل المحض إلى الواقع والاحتكام إليه، في كونها أداة للإصلاح والتجديد من أجل إثبات صلاحيتها هذا إن لم نقل نجاعتها في الحياة الاجتماعية.

يقول ديوي في مضمار هذا: "يمكن وصف الفلسفة بأنها تفكير صار واعيا، وعمم مكانته ووظيفته وقيمته في الخبرة وقيمة هذا التفكير الفلسفي تكمن في مدى تحديده للصعوبات الموجودة في المجتمع والعمل على اقتراح الطرق الناجعة والتعامل معها فعليا أن تعكس بذلك الصراعات والنزاعات الموجودة والعمل على إيجاد نقاط الإتقان والوحدة بينها".[16]

هكذا استطاعت الأداتية الديوية استحداث الفلسفة بمهمة جديدة تجعل الفلسفة أداة للإصلاح والتجديد وإعادة البناء والتوجه بالفكر الفلسفي لخدمة المجتمع ومصالحه المشتركة، تتلاحم فيها جملة المعارف كأدوات للخلق والإبداع والتعاون من أجل بناء مجتمع ديمقراطي بأبعاد إنسانية واعتبارات براغماتية واجتماعية.

ولما كانت الأداتية كمنهج تتفاعل فيه كل هذه الاعتبارات، وجب علينا التفصيل أكثر في هذا المنهج الذي استطاع جون ديوي من خلاله أن يعطي نفسا جديدا وبعدا إيجابيا للفلسفة بمهمة جديدة جدة طرحها الفلسفي الذي تحركه مجموعة من المبادئ والميكانزمات لاسيما التربية والعلم ودورهما الفعال في تعزيز قيم الديمقراطية حتى نستطيع الاقتراب من الأداتية كمبدأ وتطبيق وهذا ما سنحاول التركيز عليه في محطاتنا القادمة.

2.3. التربية ميكانزم الديمقراطية:

التربية أو الفلسفة وكأننا نتحدث عن وجهان لعملة واحدة عند جون ديوي، كما أن الحديث عن التربية حديث بالضرورة عن الديمقراطية، هذا ما عبرت عنه التربية الديمقراطية وعليه الفلسفة الأداتية فلسفة ديمقراطية، لعبت فيها التربية دور المحرك المنظم كآلية بحث وبناء فعالة استعان بها جون ديوي لإرساء دعائم فكر سرعان ما استقام بمنهجه الأداتي تحت اسم الذرائعية عند جون ديوي.

في سياق هذا الطرح إذا نتساءل عن الدور الوظيفي أو الأداتي للتربية وإمداداته الديمقراطية داخل منظومة العمل البراغماتي عامة والأداتي عند جون ديوي خاصة؟ وما مدى تفعيل الأداتية كمنهج من خلال التربية كأداة ساهمت في بناء الديمقراطية وتفعيلها داخل المجتمع؟.

إن بناء المجتمع على أسس ديمقراطية يتطلب إعادة البناء في التربية مثلما ما كان في الفلسفة وهذا ما أكده لنا جون ديوي من خلال مؤلفه الشهير "التربية والديمقراطية معتبرا أن الفلسفة نظرية عامة في التربية على اعتبار هذه الأخيرة مجرد صياغة لمشكلات تشكيل العادات العقلية والخلقية الصائبة وكل ما يتعلق بصعوبات الحياة الاجتماعية كما يؤكد أن الفلسفة " نظرية التربية في اشد جوانبها عمومية".[17]

التربية بهذا أداة أو وسيلة تطبقها الفلسفة للقيام بدورها، لان للفلسفة وظيفتين أساسيتين: أولها نقد الأهداف الحاضرة بالقياس على وضع العلم الحاضر وبيان القيم التي أصبحت بالية بالقياس إلى ما بين أيدينا من موارد فضلا عن بيان القيم التي تغدوا أن تكون عاطفية لفقدان الوسائل التي تحققها، وثانيها تفسير نتائج العلم الاختصاصي من حيث أثرها في مساعي البشرية مستقبلا.[18]

انتقد ديوي التربية التقليدية كما انتقد من قبل الفلسفة القديمة التي عبرت عن اللاديمقراطية إذ غابت فيها مظاهر الحرية ومبادئ الديمقراطية الحقة وانعكاسها بالسلب على المتعلم والحد من نموه الخلقي والفكري وبالتالي فساد العملية التربوية من جراء فرض القوانين التعسفية التي كان الخوف والتنافس وأحكام التفوق والدونية محركها الأساسي الأمر الذي يجعل الضعفاء يفقدون في هذه الحالة الثقة بقدراتهم وينزلون منزلة الدونية والعكس بالنسبة للمتفوقين وهذا إن دل فإنما يدل على مظاهر اللاديمقراطية بعيدا عن المبادئ الأخلاقية وبالتالي فتح مجال لممارسة وفرض شرعية سلطوية دوغمائية تتنافى وتتناقض ومبادئ الديمقراطية.[19]

بل أكثر من ذلك ربط ديوي مشروعه الإصلاحي في التربية بضرورة تطبيق الديمقراطية لتشمل كل عناصر العملية التربوية من أجل الوصول إلى مسمى التربية الديمقراطية وكل ما تحمله من ترسيخ لقيم الديمقراطية كميكانيزم وأداة في تجسيد مبادئ الديمقراطية من تعاون مشترك مبني على أساس المساواة، فالديمقراطية داخل الفضاء التربوي تظهر كأسلوب حياة يجعل من المتعلمين والمعلمين والعاملين هدف مشترك بغية النهوض بالطاقم التربوي ليخدم الجميع المدرسة.[20]

إن حرص ديوي على إصلاح المنظومة التربوية ناجم من حرصه على إصلاح الفلسفة ومن ثم إصلاح المجتمع ككل، خاصة ما يحقق الديمقراطية كفضاء يسمح بتجسيد مبادئ الأداتية ليسهل تطبيقها، والتعاون معا قدما لأجل إصلاح شامل يبدأ بالمؤسسة التربوية.

ما دفعه إلى إنشاء مدرسة ابتدائية تجريبية على 1896 سميت بـ"مدرسة المختبر"أو"مدرسة جون ديوي"، والتي أرادها أن تكون صورة مصغرة للمجتمع الكبير في شكل معملا نفذت فيه كل خطط ومرامي جون ديوي بما في ذلك الأداتية كتطبيق، حيث كانت المدرسة هي المخبر والتلاميذ أدوات التجريب وفقا لخبراتهم الحرة معتمدين في ذلك على العمل والتجربة والتعلم الذي مثلت الديمقراطية أحد أهم ركائزه الأساسية.

فالمدرسة باعتبارها مجتمعا جنينيا يجب أن تعكس كل صور العمل الخلاق في إطارها الديمقراطي العلمي والعملي، وهذا تحديدا ما عبرت عنه مدرسة المختبر أو المدرسة التجريبية التي أنشاها ديوي 1896 والتي سميت بمدرسة جون ديوي.

ليصبح المتعلم هو مركز التجديد ومحور التربية التقدمية ما يؤدي إلى تطوير الطبيعة البشرية زمن ثم بلوغ أفاق الديمقراطية التي تتسم بالمشاركة الفعلية بكل حرية ولا يكون ذلك إلا بالنمو المستمر والمتجدد ذلك لان الفرد ابن بيئته وليس كيانا قائما بذاته ولذاته بقدر ما هو كيان روحي وعقلي يتفاعل وتغيرات المحيط الاجتماعي مما يسمح بتحقيق الذات وإبداعاتها في شكل نماء Self Realisation Growth كمشروع إبداعي يتميز به النمو الفردي، ليس فقط على المستوى البيولوجي بل على مستوى الفكر والأخلاق والعمل لأجل تحقيق فردية متميزة ومتكاملة[21].

اعتبر ديوي أن التربية هي الحياة وليست مجرد إعداد لحياة مستقبلية، لان مسار الحياة لا يعرف ولا يعترف بالثبات، بل هي في تغير مستمر وبالتالي لا يمكننا أن نعد الطفل لحياة نجهل مصيرها خاصة مع التطور الديمقراطي والصناعي، لكن هذا لا يمنع من إعداد هذا الطفل لمستقبل يؤمن بالديمقراطية ويمجد قيمها منذ الصغر لأن التربية الحقة صناعة لمستقبل زاهر وعليه وجب امتلاك أدوات الاستشراف منذ الصغر بالرغم من تغيرات الحياة.[22]

ربط ديوي بين الوسيلة والهدف ورأى أن تطور الهدف يعني تطور الوسيلة في تحقيق الهدف وبالتالي تطور الحياة بمراعاة اختبار الوسائل بشكل صحيح عند التفكير في صياغة الأهداف والتي لابد أن ترتبط بالواقع مما يستوجب استبعاد الأهداف الثابتة والمحددة لأن بناء الديمقراطية بناء للأهداف التربوية عن طريق إشراف الداخلين في العملية التعليمية في صياغة الأهداف يعتبر أساس الوصول لديمقراطية التربية كما يجب أن ينبع الهدف من خبرة التلميذ باعتبار الخبرة تشكل محور العملية التربوية ثم توجيهه لتنمية خبراته وما يتماشى مع ظروف الحياة.[23]

ليتحدث كذلك عن المعلم الديمقراطي ودوره كمحرك في العملية التعليمية الديمقراطية، لهذا دعا إلى ضرورة الاهتمام بهيئة المدرسين ووضع الثقة فيها لان الاهتمام بالمدرس وبإعداد فرديته وذكاءه وشخصيته منبع للقوة والإصلاح وتطوير العملية التربوية، لان إصلاح التلميذ من إصلاح المسئولين عن التدريس وهم المعلمون خاصة الإصلاح من حيث النوع والخلق.[24]

فالمعلم إذن رمز من رموز الديمقراطية لما يحمله من مهمة في الإرشاد والنصح والتوجيه وإعداد للقدرات وحسن توجيهها وتشجيعها على العمل الديمقراطي لتتحول مهمته من مجرد تلقين إلى قائد يعلمهم استراتجيات التعليم والتعلم وطرق التفكير ودعم مشاركتهم في حل مشاكلهم المرتبطة بواقعهم بامتلاك الوسائل والحلول اللازمة لذلك.

فالتربية التقدمية التي نادى بها ديوي مبنية على مجموعة من الميكانزمات التي من شأنها أن تجعل التربية هي الحياة وليست إعداد لحياة كما أشرنا سابقا، تربية تؤمن بكفاءة التلميذ في تكوين نفسه بنفسه عن طريق التجربة، والثقة بالنفس مما يعزز عنده القدرة على العمل والإنتاج والفاعلية بخطى ثابتة نحو الديمقراطية وفي كنفها.

فالتجربة التي يصنعها الطفل تمثل قيمة تربوية وديمقراطية من شانها أن تفتح أفاق للتعليم الحر والعمل الناجح الذي تتفاعل فيه كل عناصر العملية التربوية، بما في ذلك الحرية ودورها في تنشيط فكر التلميذ والسير به في جو تملؤه الحرية وتحقق من خلاله الأهداف الموضوعية للتربية، إذا غالبا ما يكون القمع والكبت والتفرقة أسباب رئيسية للفشل وبالتالي آن الأوان لفتح الباب على مصراعيه أمام الحرية لتتغلغل في ثنايا العملية التربوية، لكن قلنا الحرية الايجابية التي لا تتعارض مع المجتمع والطبيعة، فالحرية لها حدود لكنها تبقى الفرصة التي يختبر بها الطفل كل الدوافع والمثيرات والميول ويجبرها على اقتحام عالم الأشياء والناس والذي هو واحد منه.[25]

تبقى الديمقراطية في إطارها التربوي وسيلة لصناعة الحريات، بما في ذلك الحرية الفكرية التي يجب أن تتحقق منذ الصغر كان ينشأ الطفل على حب الديمقراطية، الأمر الذي سيكون عنده سلوك من ديمقراطية اشرأبث منها نفسه ونزلت فيها منزلة الطبع الذي غرسته فيه المدرسة كمنبه في عملية بناء الوعي وتطوير قدرات الفرد على الفهم والاستيعاب.

فالمدرسة إذا كمجتمع مصغر تتلاحم وتتفاعل فيه كل المبادئ والميكانزمات تمثل خلية إنتاج تساهم وبشكل كبير في عملية إعادة البناء التي نادى بها ديوي في ظل المجتمع الديمقراطي التقدمي.

عموما بنا ديوي فكره الأداتي على جملة من الاعتبارات، كان للتربية فيها الاهتمام الأكبر كواحدة من أهم ميكانزمات الإصلاح والتجديد على مستوى الفرد والمجتمع وذلك بتفاعل مجموعة من الأساسيات كوظائف حية في إنجاح العملية التربوية وانعكاس ذلك على برنامج جون ديوي الإصلاحي والتي يمكن تلخيصها كالأتي:

- **المدرسة**: ودورها الوظيفي كمجتمع مصغر تكتمل فيه مقومات الإصلاح والتجديد تبعا لمتطلبات الخبرة والتجريب.

- **التعاون**: أساس للاشتراك الديمقراطي والمهني داخل المؤسسة التربوية التي تتلاحم فيها كل عناصر العملية التربوية على حد سواء.

- **الحرية**: كقيمة ديمقراطية ومنبه وعي يعمل على تشجيع القدرات واستثمارها لأجل بناء مستقبل ديمقراطي تقدمي.

- **الأهداف والوسائل**: التي تعمل مع بعض لإنجاع العملية التربوية خاصة إذا ما ارتبطت بالخبرات والقدرات الفكرية والعقلية والنفسية عند الطفل.

- **المعلم الديمقراطي**: محور العملية التربوية ومركزها كمحرك فعال من شأنه توظيف وتحقيق مرامي التربية التقدمية.

- **الاهتمام بالمعلم والتلميذ** داخل المنظومة التربوية فهما والهما فقط تتحقق التربية كفاعلية اجتماعية.

3.3 العلم الأداتي من التربية إلى الديمقراطية

يؤكد ديوي على أهمية العلم في تعزيز قيم الديمقراطية وتجسيد أهداف التربية، فالفكر التربوي مرتبط بالتفكير والتقدم العلميين من جهة والتطور الديمقراطي من جهة ثانية قائلا في مضمار هذا: "ولقد رأينا كيف أن واحد من هذين التغييرين وهو نمو المثل الديمقراطية العليا، يتطلب تغييرا في العملية التربوية، أما التغيير الثاني كان نتيجة من نتائج التفكير العلمي والاكتشافات العلمية، فان صورته ينبغي أن تنعكس في فصول الدراسة".[26]

يحمل العلم حسب ديوي مدلولين، الأول معناه التقني الخالص والثاني معناه الأداتي أو ما يسميه "بالعلم التطبيقي" وماله من أهمية تنعكس بصورة واضحة ومباشرة على حياة الإنسان خاصة إذا ما ارتبط بالمبادئ الأخلاقية التي تشكل قيمة استثنائية لابد أن ينتجها العلم كأداة للتطور الاجتماعي والديمقراطي، هذا ما قصده بالضبط عندما قال الجمهور الأصيل الذي يفهم بعلمه احتياجات مجتمعه وبناء قيمه.[27]

للعلم جوانب سلبية وأخرى ايجابية فهو سلاح ذو حدين، لكن يمكن اعتباره كأداة أساسية للتغلب على مشكلات الإنسان المعاصر بالرغم من انه يشكل اضطرابا للمجتمعات من جراء سوء استغلاله، ولعل الاستغلال الحسن للعلم كأداة للتطور والإصلاح والتغير تفرضها علينا الحياة خاصة إذا ما ارتبط بالتوعية والقدرة على استدراك الضرر بدفع الشبهات عنه واستثماره كأداة فعالة داخل المجتمعات.

إذ يمثل العلم قوة عظمى وطاقة جبارة يستعان بها على مجابهة مشاكل الحياة باستغلالها لصالح ولخدمة الإنسانية، ما أكده من قبل الفيلسوف الانجليزي فرنسيس بيكن "العلم قوة" وذلك بتسخير الطبيعة، فالمشكلة بحسب ديوي لا تكمن في العلم وإنما في عجز الإنسان عن الاستعمال الجيد له ولأدواته التقنية.[28]

لذلك أراد ديوي إقحام العلم في العملية التربوية كواحد من أهم مقومات التربية، ودعوته لبناء علم ديمقراطي تتنامى فيه مقومات الذكاء والمنهج العلمي مما يساهم في نمو عقلي وجسمي ونفسي سليم ومن ثم بناء مناهج متكاملة العناصر وعلى أسس ديمقراطية، حيث يعمل المنهج العلمي على توسيع مجال الأفكار كفروض نستفيد من نتائجها عن طريق التجربة والاختبار، لتصبح نتائج البحث مادة خصبة للدراسة النقدية المتواصلة وفي هذا إصرار على العمل والاستمرارية والتقدم الذي لطالما جاءت البراغماتية لتنادي به "لأن أي نظرية وأي مجموعة من التطبيقات لا تبنى على الفحص النقدي لمبادئها الإنسانية تعد جامدة".[29]

فالعلم في نظر ديوي يدعو إلى ضرورة اتحاد منهجه مع المثل الأعلى للديمقراطية فهو لا يعني فقط حل المشكلات الإنسانية ببراعة كما هو موجود في المجتمعات الديكتاتورية، بل بقدر ما هو اشتراك الناس جمعيها في حل مشاكلهم الفردية والجماعية وتوظيفهم للخبرات المشتركة للوصول إلى اتفاق ورضا، ولا يكون

ذلك إلا بقدر ما تعمل التربية على ترسيخه في فكر المجتمع بجميع أفراده، والعلم مثمر وإيجابي في ارتباطه بالمسائل الأخلاقية دون أن تلوثه أغراض نفعية فهو أمانة معرفية وإنسانية.

على العلم إذا أن يستجيب للتربية ويتوجه نحو الديمقراطية باعتباره أداة فاعلة قي تنمية المجتمعات إذا ما ارتبط بالذكاء والخبرة والحرية داخل مجتمع ديمقراطي يؤمن بأهمية العلم لصالح الجماعة ذلك أن العلم بطبيعته الموضوعية يرفض الفوارق التي من شأنها فرض القسمة والتفرقة بين أفراد المجتمع، تبقى التقنية صفة العلم الأولى لكن أبعادها الإنسانية أقوى من أن تجعله في مرتبة العلم الإنساني الذي كان للتربية فيه تشكيله دورا أساسيا وللديمقراطية في تطويره دورا رئيسيا.

4. خاتمة:

نلخص مما سبق أن الأداتية لم تكن مجرد مذهب، بقدر ما كانت منهج سعى من خلاله جون ديوي لتشييد صرح منظومة عمل تتلاحم فيها كل مقومات النجاح وتستثمر فيها القدرات والخبرات، لأجل ردم الهوة المزعومة بين الفرد ومجتمعه من جهة والعمل على إعادة بناء شامل يمس جل مفاهيم الفلسفة المتعلقة بالنظم الاجتماعية والسياسية والتربوية من اجل بلوغ المثل الأعلى للديمقراطية من جهة ثانية.

الأمر الذي استدعى وضع خطة عمل تسخر فيها كل أدوات البناء من معارف وأفكار وتجارب، علاوة على التحذير والتنبيه إلى المعطلات الديناميكية الكامنة في الفلسفات التقليدية، بشكل عام والتربية والعلم بشكل خاص، وهو ما يدفع بموقفه خطوة أخرى بوظيفة جوهرية يحاكى فيها الواقع المعاش من صميم الطموح الاجتماعي والتفاؤل الإنساني لأجل إلا صلاح والتجديد.

انطلاقا من هذا تكتسي مسالة إعادة البناء وعملية التجديد أهمية بالغة في فلسفة جون ديوي الأداتية لتأخذ كل وجهاتها وبعدها الإصلاحي ليس في كونها فكرة أو خطة عمل أو إجراء مرحلي، بل هي فلسفة لها مبادئها وغاياتها التي تعزز من فرص انتشار الديمقراطية.

ما دفع إلى وضع مساءلة إجرائية تقييميه لعبت فيها التربية أدوارا رئيسية كواحدة من أهم مبررات إعادة البناء ودورها الديمقراطي "التربية الديمقراطية" لأنها مطالبة أكثر من غيرها باستدراك المعطلات، كيف لا وهي جوهر المجتمع وقلبه النابض بنبض أفراده، خاصة المدرسة باعتبارها مجتمعا جنينيا تنعكس فيه صورة الديمقراطية بصفتها مثلا أخلاقيا بعيدا عن كل ثقافة مستعلية تستعمل التطور العلمي لفرض وجودها.

من هنا جاءت فكرة العلم الديمقراطي أو العلم التطبيقي الذي يؤمن بقيمة المنهج العلمي وتطوره تربويا كرد فعل في مواجهة الصراعات المحتدمة بين الإنسان والطبيعة في شكل صراع جندت فيه القوى الأداتية كذرائع يستعين بها الإنسان على حل مشاكل الحياة لأجل التكيف والاستمرارية داخل مجتمع يحتكم إلى منطق العلم والتربية والديمقراطية والإصرار على الممارسة الواقعية.

5. قائمة المصادر المراجع:

قائمة المصادر:

1. ديوي جون، المدرسة والمجتمع، تر: احمد حسن الرحيم، دار المكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1975.
2. ديوي جون، إعادة البناء في الفلسفة، تر: احمد الأنصاري، ط1، مصر، 2010.
3. ديوي جون، البحث عن اليقين، تر: احمد فؤاد الاهواني، المركز العربي للترجمة، مصر، 2015.
4. ديوي جون، التربية في العصر الحديث، تر: عبد العزيز عبد المجيد ومحمد محسن المغربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1949.
5. ديوي جون، الجمهور ومشكلاته، تر: فاطمة الشايجي، ط1، المطبعة الدولية، القاهرة، مصر، 2007.
6. ديوي جون، الحرية والثقافة، تر: أمين مرسي قنديل، مطبعة التحرير، مصر، 2010.
7. ديوي جون، الخبرة والتربية- ترجمة (محمود البسيوني الحمادي)، دار المعارف، مصر، 1954.
8. ديوي جون، الديمقراطية والتربية، تر: متى عفراوي وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1964.
9. ديوي جون، الفردية قديما وحديثا، تر: خيري حمادة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979.
10. ديوي جون، مدارس المستقبل، تر: عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1962.
11. john dewey democratic education, présentation de Gérard Deledalle, les presses de imprimerie Delmas a Artigues prés, Bordeaux s(é), 1983.

قائمة المراجع:

12. إبراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة (الجزء الأول)، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1968.
13. احمد مختار، معجم اللغة العربية (المجلد الرابع)، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008.
14. الشمري عبد الأمير، الفلسفة الأمريكية، (براغماتية جون ديوي في الفكر والعمل)، دار الصنوبر، لبنان، 2008.
15. شنايدر هاربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، تر: محمد فتحي الشطي، القاهرة، دار المعارف، مصر، 1964.
16. قام يعقوب، البراجماتزم مذهب الذرائع، ط2، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985.
17. كامل فؤاد، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، لبنان، 1994.
18. محمد علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم الميتودولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ت.
19. المهرج عبد الهادي، الفلسفة البراغماتية أصولها ومبادئها، درا الكتب العلمية، لبنان، 2008.
20. Halévy,(E),la formation du radicalisme philosophique, Paris: presses universitaires de France 108, 1995.
21. Richard. Shusterman, le liberalisme pragmatique. Paris : W 555-556 Aout Septembre, 1993.

[1] إبراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة (الجزء الأول)، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1968، ص32.

[2] احمد مختار، معجم اللغة العربية (المجلد الرابع)، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر:، 2008، ص393.

[3] Halévy,(E),la formation du radicalisme philosophique, Paris: presses universitaires de France 108, 1995, p27.

[4] المهرج عبد الهادي، الفلسفة البراغماتية أصولها ومبادئها، درا الكتب العلمية، لبنان، 2008، ص167.

[5] كامل فؤاد، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، لبنان، 1994، ص117.

[6] محمد علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم الميتودولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص143.

[7] الشمري عبد الأمير، الفلسفة الأمريكية، (براغماتية جون ديوي في الفكر والعمل)، دار الصنوبر، لبنان، 2008، ص175.

[8] ديوي جون، الفردية قديما وحديثا، تر: خيري حمادة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979، ص143-145.

[9] شنايدر هاربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، تر: محمد فتحي الشطي، القاهرة، دار المعارف، مصر، 1964، ص385.

[10] قام يعقوب، البراجماتزم مذهب الذرائع، ط2، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985، ص156.

[11] ديوي جون، البحث عن اليقين، تر: احمد فؤاد الاهواني، المركز العربي للترجمة، مصر، 2015، ص91.

[12] ديوي جون، إعادة البناء في الفلسفة، تر: احمد الأنصاري، ط1، مصر، 2010، ص30.

[13] ديوي جون، الحرية والثقافة، تر: أمين مرسي قنديل، مطبعة التحرير، مصر، 2010، ص09.

[14] ديوي جون، الفردية قديما وحديثا، المرجع السابق، ص128.

[15] ديوي جون، الديمقراطية والتربية، تر: متى عفراوي وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1964، ص291.

[16] john dewey democratic education, présentation de Gérard Deledalle, les presses de imprimerie Delmas a Artigues prés, Bordeaux s(é), 1983, p291

[17] ديوي جون، الديمقراطية والتربية، ص293.

[18] ديوي جون، المرجع نفسه، ص293.

[19] ديوي جون، المرجع نفسه، ص152.

[20] ديوي جون، المدرسة والمجتمع، تر: احمد حسن الرحيم، دار المكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1975، ص19.

[21] Richard. Shusterman, le liberalisme pragmatique. Paris : W 555-556 Aout Septembre, 1993, P554.

[22] ديوي جون، التربية في العصر الحديث، تر: عبد العزيز عبد المجيد ومحمد محسن المغربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1949، ص19.

[23] ديوي جون، الخبرة والتربية- ترجمة (محمود البسيوني الحمادي)، دار المعارف، مصر، 1954، ص17.

[24] ديوي جون، التربية في العصر الحديث، المرجع السابق، ص80.

[25] ديوي جون، مدارس المستقبل، تر: عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1962، ص185.

[26] ديوي جون، مدارس المستقبل، المرجع السابق، ص337.

[27] ديوي جون، الجمهور ومشكلاته، تر: فاطمة الشايجي، ط1، المطبعة الدولية، القاهرة، مصر، 2007، ص189.

[28] ديوي جون، الفردية قديما وحديثا، المرجع السابق، ص183.

[29] ديوي جون، الخبرة والتربية، المرجع السابق، ص190.